

تفسير سورة فصلت

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ كُنْتُ فُصِّلْتُ مَا بَيْنَتْهُ قُرْءًا أَنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿بَشِيرًا
وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَمَتِهِ وَمَا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ فِي مَادَانِنَا وَقُرْ
وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾

يقول تعالى: ﴿ حَمْدٌ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ يعنى : القرآن منزل من الرحمن الرحيم ، كقوله :
﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [النحل : ١٠٢] ، وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى
قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٢ - ١٩٤] .

وقوله : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلْتُ آيَاتُهُ ﴾ أى : بُيِّنْتُ معانيه وأحكامه ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أى : فى حال كونه
لفظا عربيا، بينا واضحا، فمعانيه مفصلة، والفاظه واضحة غير مشكلة، كقوله : ﴿ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ
فُصِّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] أى : هو معجز من حيث لفظه ومعناه ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ
خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] . وقوله : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أى : إنما يعرف هذا البيان والوضوح
العلماء الراسخون، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أى : تارة يبشر المؤمنين، وتارة ينذر الكافرين، ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا
يَسْمَعُونَ ﴾ أى : أكثر قريش، فهم لا يفهمون منه شيئا مع بيانه ووضوحه، ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَمَةٍ ﴾ أى :
فى غلف مغطاة ﴿ وَمَا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ فِي مَادَانِنَا وَقُرْ ﴾ أى : صمم عما جئنا به، ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ فلا
يصل إلينا شيء مما تقول، ﴿ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ أى : اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا لا
نتابعك .

عن محمد بن كعب القرظى قال: حَدَّثْتُ أَنَّ عْتَبَةَ بن ربيعة - وكان سيديا - قال يوما وهو جالس فى
نادى قريش، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه
وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا
أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه. فقام إليه عتبة
حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السطة فى العشيرة،
والمكان فى النسب، وإنك قد آتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفحت به أحلامهم،
وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آباءهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنتظر فيها
لعلك تقبل منا بعضها. قال: فقال له رسول الله ﷺ : «قل يا أبا الوليد، أسمع». قال: يا ابن
أخى، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا
أموالا. وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك. وإن كنت تريد به ملكا ملكناك
علينا. وإن كان هذا الذى يأتىك رتيبا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك العطب، وبذلنا فيه
أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يدأوى منه - أو كما قال له - حتى إذا

فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟». قال: نعم. قال: «فاستمع مني» قال: أفعل. قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمِّمْ . نَزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾. ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرأها عليه. فلما سمع عتبة أنصت لها، والقي يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك»، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: أقسم - يحلف بالله - لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها لي، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملككم ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم^(١).

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَرَبِّ لَِّلْمُشْرِكِينَ ۖ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ لا كما تعبدونه من الأصنام والانداد والارباب المتضيقين، إنما الله إله واحد، ﴿فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: اخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على السنة الرسل، ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: لسالف الذنوب، ﴿وَرَبِّ لَِّلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: دمار لهم وهلاك عليهم، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال ابن عباس: يعني: الذين لا يشهدون لا إله إلا الله. وهذا كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وكقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الاعلى: ١٤، ١٥]، وقوله: ﴿قُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرَكَّى﴾ [النارعات: ١٨].

والمراد بالزكاة هاهنا: طهارة النفس من الاخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك. وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سبباً لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقاً إلى استعماله في الطاعات. وقال قتادة: يمنون زكاة أموالهم. وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير. وفيه نظراً لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة، على ما ذكره غير واحد، وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الزكاة والصدقة كان مأموراً به في ابتداء البعثة، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الانعام: ١٤١]، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين أمرها بالمدينة، ويكون هنا جمعاً بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجباً قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف، فرض الله على رسوله ﷺ الصلوات الخمس، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد

ذلك، شيئا فشيئا، والله أعلم.

ثم قال بعد ذلك : ﴿إِنَّ الدِّينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال مجاهد وغيره: لا مقطوع ولا مجبوب، كقوله: ﴿مَا كُنْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣]، وكقوله تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُودٍ﴾ [مرد: ١٠٨].

﴿ قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَصَجَعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رِيسَى مِنْ قَوْفِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِينِ ﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَلَابِعِينَ ﴿ فَفَضَّضْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الَّتِي بِنَايَا بِمَصْنُوعٍ وَجِظْفًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقدر لكل شيء، فقال: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ أى: نظراء وأمثالا تعبدونها معه، ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم. وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الاعراف: ٥٤]، ففصل هاهنا ما يختص بالارض مما اخصت بالسماء، فذكر انه خلق الارض اولا لانها كالاساس، والاصل ان يبدأ بالاساس، ثم بعده بالسقف، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٩]. فاما قوله: ﴿أَلَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا . رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا . وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا . وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا . مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النارعات: ٢٧ - ٣٣] ففى هذه الآية ان دَحَى الارض كان بعد خلق السماء، فالدحى هو مفسر بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾، وكان هذا بعد خلق السماء، فاما خلق الارض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا اجاب ابن عباس فيما ذكره البخارى عند تفسير هذه الآية من صحيحه، فانه قال رجل لابن عباس: انى اجد فى القرآن اشياء تختلف على، قال: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الممترون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الانعام: ٢٣]؛ فقد كتموا فى هذه الآية؟ وقال: ﴿أُمُّ السَّمَاءِ بَنَاهَا﴾، الى قوله: ﴿دَحَاهَا﴾ [النارعات: ٢٧ - ٣٠]، فذكر خلق السماء قبل خلق الارض ثم قال: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ الى قوله: ﴿طَالَعِينَ﴾، فذكر فى هذه خلق الارض قبل خلق السماء؟ وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦]، ﴿سَمِيحًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، فكانه كان ثم مضى. فقال ابن عباس: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فى النسخة الاولى، ثم يفتح فى الصور ﴿فَلْيَصِلْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، فلا انساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم فى النسخة الاخرى ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

واما قوله: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثًا﴾، فان الله يغفر لاهل الإخلاص ذنوبهم، فيقول المشركون: تعالوا نقول: «لم تكن مشركين»، فيختم على أفواههم، فتنتطق أيديهم، فعند ذلك يعرف ان الله لا يكتم حديثا، وعنده ﴿يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الحجر: ٢]. وخلق الارض فى يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء، فسواهن فى يومين آخرين، ثم دَحَى الارض، ودَحِيَّهَا: ان اخرج منها

الماء والمرعى، وخلق الجبال والجماد والأكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله: ﴿ذَحَاهَا﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فَخَلَقَتِ الْأَرْضُ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ، وَخَلَقَتِ السَّمَاوَاتِ فِي يَوْمَيْنِ. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، سمي نفسه بذلك، وذلك قوله، أى: لم يزل كذلك؛ فإن الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذى أراد، فلا يختلفن عليك القرآن، فإن كلا من عند الله عز وجل.

فقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، يعنى: يوم الأحد ويوم الإثنين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أى: جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ وهو: ما يحتاج أهلها إليه من الارزاق والاماكن التى تزرع وتغرس، يعنى: يوم الثلاثاء والاربعاء، فهما مع اليومين السابقين أربعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى: لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه. وقال مجاهد وعكرمة فى قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾: جعل فى كل أرض ما لا يصلح فى غيرها. وقال ابن عباس، وقتادة، فى قوله تعالى: ﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى: لمن أراد السؤال عن ذلك. وقال ابن زيد: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى: على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة، فإن الله قدر له ما هو محتاج إليه. وهذا القول يشبه ما ذكروه فى قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنْ كُلِّ مَاءٍ سَائِغًا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ وهو: بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ إِنِّي نَادِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أى: استجيبا لأمرى، وانفعلا لفعلى، طائعتين أو مكرهتين. قال ابن عباس: قال الله تعالى للسماوات: اطلعى شمسى وقمرى ونجومى. وقال للأرض: شقى أنهارك، وأخرجى ثمارك: فقالتا: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. واختاره ابن جرير. ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أى: بل نستجيب لك مطيعين بما فينا، مما تريد خلقه من الملائكة والإنس والجن جميعا مطيعين لك. حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية، قال: وقيل: تنزيلا لهن معاملة من يعقل بكلامهما. ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أى: ففرغ من تسويتهن سبع سماوات فى يومين، أى: آخرين، وهما يوم الخميس ويوم الجمعة ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أى: ورتب مقررا فى كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة، وما فيها من الأشياء التى لا يعلمها إلا هو، ﴿وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِحَ﴾ وهن الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، ﴿وَحِفْظًا﴾ أى: حرسا من الشياطين أن تستمع إلى الملا الأعلى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أى: العزيز الذى قد عز كل شىء فغلبه وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم.

﴿ فَإِنِ اعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٤﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاتِ فَإِنَّا بِمَا أُرْيَيْتُمْ بِرُءُوفٌ كَرِيمُونَ ﴿١٥﴾ فَمَا عَادَ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٦﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَّحْسَبَاتٍ لِنُذِرَهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ الْعَذَابَ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٨﴾ وَبَجْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جتهدم به من الحق: إن أمرضتم عما جتهدم به من عند الله، فإنى أنذركم حلول نعمة الله بكم، كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿صَاعِقَةٌ مِّنْ صَاعِقَةٍ عَادٍ وَأَتَمُّوهُ﴾ أى: ومن شاكلهما ممن فعل كفضلهما، ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ لَهَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرْنَاهُ بِالْأَحْقَابِ وَقَدْ حَلَّتِ الضَّرْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الاحقاف: ٢١] أى: فى القرى المجاورة لبلادهم، بعث الله إليهم الرسل يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، وراوا ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس أوليائه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا، بل كذبوا وجحدوا، وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أى: لو أرسل الله رسلا لكانوا ملائكة من عنده، ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أى: أيها البشر ﴿كَاذِبُونَ﴾ أى: لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: بغوا وعتوا وعصوا، ﴿وَقَاتَلُوا مِنْ أُنْدُ مَنَا قُوَّةً﴾ أى: سوا بشدة تركيبيهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ الْأَشْيَاءَ وَرَكَّبَ فِيهَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أى: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة؟ فإنه العظيم الذى خلق الاشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله، فلهدا قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال بعضهم: وهى الشديدة الهبوب. وقيل: الباردة. وقيل: هى التى لها صوت. والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحا شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جدا، كقوله تعالى: ﴿بَرِيحٌ صَرْصَرٌ عَالِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٦] أى: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق «صرصرا»، لقوة صوت جريه.

وقوله: ﴿فِي أَيَّامٍ نُّحِسَاتٍ﴾ أى: متابعات، ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، كقوله: ﴿فِي يَوْمٍ نَخْتِمُ بِهِ السُّعْيَ﴾ [الفرق: ١٩] أى: ابتدئوا بهذا العذاب فى يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس سبع ليالٍ وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِنُدَبِّيَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ أى: أشد خزيا لهم، ﴿وَهُمْ لَا يَنْصُرُونَ﴾ أى: فى الآخرة، كما لم ينصروا فى الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيههم العذاب ويدرا عنهم النكال.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، وقتادة: بينا لهم. وقال الثورى: دعوناهم. ﴿فَاتَّبَعُوا النَّمْلَ عَلَى الْهَدْيِ﴾ أى: بصرناهم، وبيننا لهم، ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه السلام، فخالقوه وكذبوه، وعقروا ناقه الله التى جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم، ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً مِّنَ الذَّبَابِ الْهُونِ﴾ أى: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلا وهوانا وعذابا ونكالا، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: من التكذيب والجحود. ﴿وَرَتَجْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: من بين أظهرهم، لم يسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح عليه السلام بإيمانهم، وتقواهم لله، عز وجل.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٣﴾ حَقَّ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا لَوْلَا دِينُنَا لِمَ سَهَدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ

كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٩﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا قَالِنَارُ مَتَوَى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أى: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار ﴿يُوزَعُونَ﴾ أى: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى: ﴿وَتَسُوفُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾ [مریم: ٨٦] أى: عطاشا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤَاهَا﴾ أى: وقفوا عليها، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: بأعمالهم بما قدموه وآخره، لا يكتف من حرف. ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟﴾ أى: لا موا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء: ﴿قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى: فهو لا يخالف ولا يمانع، وإليه ترجعون. عن أنس بن مالك، قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم، فقال: «ألا تسألونى عن أى شيء ضحكت؟» قالوا: يا رسول الله، من أى شيء ضحكت؟ قال: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أى ربى، اليس وعدتني ألا تظلمنى؟ قال: بلى، فيقول: فإنى لا أقبل على شاهد إلا من نفسى. فيقول الله تبارك وتعالى: أو ليس كفى بى شهيدا، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟! قال: فيردد هذا الكلام مرارا». قال: «فيحتم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بعبدا لكنَّ وسُحفا، عنكن كنت أجادل». أخرجه مسلم والنسائي^(١). وقد تقدم أحاديث كثيرة، وأثار عند قوله فى سورة يس: ﴿الْيَوْمَ نَخِمْ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أى: تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تتكتمون منا الذى كنتم تفعلونه، بل كنتم تمأهرون الله بالكفر والمعاصى، ولا تبالون منه فى زعمكم! لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم! ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ. وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ﴾ أى: هذا الظن الفاسد - وهو اعتقادكم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون - هو الذى أتلفكم وأرداكم عند ربكم، ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى: فى مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهلكم. روى الإمام أحمد عن عبد الله قال: كنت مسترا باستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر: قرشى، وختناه ثقفيان - أو: ثقفى وختناه قرشيان - كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئا سمعه كله. قال: فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. وكذا رواه الترمذى ومسلم بنحوه والبخارى^(٢). وروى الإمام أحمد عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتن أحد

(١) مسلم (١٧/٢٩٦٩) والنسائي فى الكبرى (١١٦٥٣) بنحوه.

(٢) المسند (٣٨٧٥) والبخارى (٤٨١٧) ومسلم (٥/٢٧٧٥) والترمذى (٣٢٤٩).

منكم إلا وهو يحسن بالله الظن، فإن قوما قد أراهم سوء ظنهم بالله، فقال الله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ أَنزَلْنَاكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ مَاءً غَاسِقِينَ﴾ (١).

وقوله: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُحْتَبِينَ﴾ أى: سواء عليهم أصبروا أم لم يصبروا هم فى النار، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذارا فما لهم أعذار، ولا تُقال لهم عثرات. قال ابن جرير: ومعنى قوله: ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾ أى: يسألوا الرجعة إلى الدنيا، فلا جواب لهم، قال: وهذه كقوله تعالى إخبارا عنهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِن عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨].

﴿ وَقَبَضْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٣٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِن الْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا سَحَابًا مُّقْتَصِدًا يَلْبَسُونَ مِنْ الْأَسْفَلِينَ ﴿٤٠﴾﴾

ربع

يذكر تعالى أنه هو الذى أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم فى أفعاله، بما قبض لهم من القرآن من شياطين الإنس والجن ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أى: حسنوا لهم أعمالهم فى الماضى، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِبَضْ لَهُ شِيطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أى: كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم، ممن فعل كفعالهم، من الجن والإنس ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ أى: استوتوا هم وإياهم فى الخسار والدمار. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ﴾ أى: تواصلوا فيما بينهم ألا يطيعوا للقرآن، ولا يتقادوا لأوامره ﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾ أى: إذا تلى لا تستمعوا له. قال مجاهد: ﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾ أى: بالمكاء والصفير والتخليط فى المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن قرئش ففعله. وقال ابن عباس: ﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾ أى: عيبوه. وقال قتادة: اجحدوا به، وأنكروه وعادوه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾: هذا حال هؤلاء الجاهلة من الكفار، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن. وقد أمر الله - سبحانه - عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الاعراف: ٢٠٤].

ثم قال تعالى: متصرا للقرآن، ومتقما عن عاداه من أهل الكفران: ﴿فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أى: فى مقابلة ما اعتمدوه فى القرآن وعند سماعه، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: بشر أعمالهم، وسين أعمالهم ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾. وقال

الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَلَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٣٠﴾ . قال سفيان الثوري عن علي في قوله : ﴿الَّذِينَ أَضَلَّانَا﴾ قال : إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه . وقال السدي ، عنه : فإبليس يدعو به كل صاحب شرك ، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة ، فإبليس - لعنه الله - هو الداعي إلى كل شر من شرك فما دونه ، وابن آدم الأول . كما ثبت في الحديث : «ما قتلت نفس ظلما إلا كان علي ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل» (١) .

وقوله : ﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي : أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذابا منا ؛ ولهذا قالوا : ﴿لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ أي : في الدرك الأسفل من النار ، كما تقدم في «الاعراف» من سؤال الاتباع من الله أن يعذب قادتهم أضعاف عذابهم ، قال : ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الاعراف : ٣٨] أي : إنه تعالى قد أعطى كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال ، بحسب عمله وإفساده ، كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَرُوقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل : ٨٨] .

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣١﴾ مَعْنُ أَوْلِيَاؤَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣٢﴾ نَزَّلْنَا مِنْ عَفْوٍ رَحِيمٍ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي : اخلصوا العمل لله ، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم . عن عكرمة قال : سئل ابن عباس : أي آية في كتاب الله أرخص ؟ قال قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله . وقال الزهري : تلا عمر هذه الآية على المنبر ، ثم قال : استقاموا - والله - الله بطاعته ، ولم يروغوا وروغان الثعالب . وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على أداء فرائضه . وكذا قال قتادة ، قال : وكان الحسن يقول : اللهم ، أنت ربنا ، فارزقنا الاستقامة . وقال أبو العالية : ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ : اخلصوا له العمل والدين . وروى الإمام أحمد عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت : يا رسول الله ، حدثني بأمر اعتصم به . قال : «قل : ربى الله ، ثم استقم» . قلت : يا رسول الله ، ما أكثر ما تخاف علي ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه ، ثم قال : «هذا» . وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح (٢) . وقد أخرجه مسلم في صحيحه والنسائي عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت : يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولاً ، لا أسأل عنه أحدا بعدك . قال : « قل : آمنت بالله ، ثم استقم » . وذكر تمام الحديث (٣) .

وقوله : ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال مجاهد ، والسدى ، وزيد بن أسلم : يعنى عند الموت قائلين : ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ أي : مما تقدمون عليه من أمر الآخرة ، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي : على ما خلفتموه من أمر الدنيا ، من ولد واهل ، ومال أو دين ، فإننا نخلفكم فيه ، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشرونهم بذهاب

(١) مضى تخريجه عند الآية (٢٩) من سورة المائدة .

(٢) المسند (٤١٣/٣) ، والترمذى (٢٤١٠) وابن ماجه (٣٩٧٢) ، وصححه الالبانى .

(٣) مسلم (٣٨) والنسائي (١/١١٤٨٩) .

الشر وحصول الخير. وهذا كما في حديث البراء: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمريه، اخرجي إلى روح وريحان، ورب غير غضبان» (١). وقيل: إن الملائكة تنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم. حكاه ابن جرير عن ابن عباس، والسدي. وقال زيد ابن أسلم: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يبعث. وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جدا. وهو الواقع.

وقوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاور بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهي النفوس، وتقر به العيون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم، كما اخترتم، ﴿نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾ أي: ضياقة وعطاء وإنعاما من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غفر، وستر، ورحم، ولطف. وروى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قلنا: يا رسول الله، كلنا نكره الموت؟ قال: «ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله فأحب الله لقاءه» قال: «وإن الفاجر - أو الكافر - إذا حضر جاءه بما هو صائر إليه من الشر - أو: ما يلقي من الشر - فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه».

وهذا حديث صحيح، وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه (٢).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَجِلَ صَلَاحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ﴿وَمَا يَتَزَعَّتْكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

يقول عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: دعا عباد الله إليه ﴿وَعَجِلَ صَلَاحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وهو في نفسه مهتد بما يقوله، فتنفعه لنفسه ولغيره لارم ومتعده، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل ياتمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة في كل من دعا إلى خير، وهو في نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك، كما قال محمد بن سيرين، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقيل: المراد بها المؤمنون الصالحاء. والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية؛ لأنها مكية، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة، حين أرى عبد الله

(١) مضمي الحديث وتخرجه عند الآية (٤٠) من سورة الأعراف.

(٢) لمسند (١٠٧/٣) والبخارى (٦٥٠٧) ومسلم (١٤/٢٦٨٣).

ابن زيد بن عبدربه الأنصارى فى منامه ، فقصه على رسول الله ﷺ ، فأمره أن يلقيه على بلال فإنه أئدى صوتا ، كما هو مقرر فى موضعه ، فالصحيح إذاً أنها عامة ، كما قال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الحسن البصرى : أنه تلا هذه الآية : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ، فقال : هذا حبيب الله ، هذا ولى الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله فى دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته ، وعمل صالحا فى إجابته ، وقال : إننى من المسلمين ، هذا خليفة الله .

وقوله : ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا الْحِسْتَةَ وَلَا السَّبِيَّةَ ﴾ أى : فرق عظيم بين هذه وهذه ، ﴿ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أى : من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه ، كما قال عمر : ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ وهو الصديق ، أى : إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادتته تلك الحسنة إليه إلى مصافقتك ومحبتك ، والحنو عليك ، حتى يصير كأنه ولى لك حميم ، أى : قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك . ثم قال : ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أى : وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك ، فإنه يشق على النفوس ، ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى : ذو نصيب وافر من السعادة فى الدنيا والأخرى . قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم كأنه ولى حميم .

وقوله : ﴿ وَإِنَّمَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ أى : إن شيطان الإنس ربما يتخدع بالإحسان إليه ، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذى سلطه عليك ، فإذا استعدت بالله ولجأت إليه ، كفه عنك ورد كيده . وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه » (١) . وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له فى القرآن إلا فى «سورة الاعراف» عند قوله : ﴿ خَلِّ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . وَإِنَّمَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الاعراف : ١٩٩ ، ٢٠٠] ، وفى سورة المؤمنين عند قوله : ﴿ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيَّةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصْلُونَ . وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون : ٩٦ - ٩٨] .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خِشْعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنِ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى منها خلقه على قدرته العظيمة ، وأنه الذى لا نظير له ، وأنه على ما يشاء قادر ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ أى : أنه خلق الليل بظلامه ، والنهار بضياءه ، وهما متعاقبان لا يفتران ، والشمس ونورها وإشراقها ، والقمر وضياءه وتقدير منازلها فى فلكه ، واختلاف سيره فى

(١) ابن ماجه (٨٠٨) وصححه الالبانى .

سماته، يُعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجمع والشهور والاعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات. ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الاجرام المشاهدة في العالم العلوى والسفلى، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبادان من عبيده، تحت قهره وتسخيره، فقال: ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أى: ولا تتركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به؛ ولهذا قال: ﴿ إِن كُنتُمْ اسْتَكْبَرُوا ﴾ أى: عن أفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره، ﴿ فَالَّذِينَ عِبَدُوا مِن دُونِهِ ﴾ الملائكة، ﴿ يَسْجُدُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾، كقوله: ﴿ إِن كُفِّرُوا بَهَا حَوْلًا فَكُنَّا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ [الانعام: ٨٩].

وقوله: ﴿ وَمِن آيَاتِهِ ﴾ أى: على قدرته على إعادة الموتى ﴿ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ أى: هامة لا نبات فيها، بل هي ميتة، ﴿ إِذْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ ﴾ أى: أخرجت من جميل ألوان الزروع والشمار، ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي بآيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُم بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَنُتِبُ غَزِيْبٌ ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٌ ﴿

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ قال ابن عباس: الإلحاد: وضع الكلام على غير مواضعه. وقال قتادة، وغيره: هو الكفر والعدا. وقوله: ﴿ لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ فيه تهديد شديد، ووعد أكيد، أى: أنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال؛ ولهذا قال: ﴿ أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي بآيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾؟ أى: أيتوى هذا وهذا؟ لا يستويان. ثم قال - عز وجل - تهديداً للكفرة: ﴿ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ قال مجاهد، والضحاك، وعطاء: وعيد، أى: من خير أو شر، إنه عالم بكم، وبصير بأعمالكم؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّهُم بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

ثم قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ قال الضحاك، والسدى، وقاتدة: وهو القرآن، ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ أى: منيع الجانب، لا يرام أن يأتي أحد بمثله، ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ أى: ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه منزل من رب العالمين؛ ولهذا قال: ﴿ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ أى: حكيم في أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أى: في جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عواقبه وغاياته.

ثم قال: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ قال قتادة، والسدى، وغيرهما: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما قد كذبت فقد كذبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك. وهذا اختيار ابن جرير. وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ أى: لمن تاب إليه، ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى: لمن استمر على كفره، وطغيانه، وعباده، وشقاقه، ومخالفته.

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۗ أَأَعْجَبِيْنَّ وَعَرَفِيْنَّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى

وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرُّ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٣٦﴾

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته، وإحكامه في لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت، كما قال عزوجل: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٨، ١٩٩]. وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة المعجم، لقالوا على وجه التعنت والعداوة: ﴿ لَوْلَا فَصَّلْتَ آيَاتَهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ أي: لقالوا: هلا أنزل مفصلا بلغة العرب، ولانكروا ذلك فقالوا: أعجمي وعربي؟ أي: كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه؟ هكذا روى هذا المعنى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة وغيرهم. وقيل: المراد بقولهم: ﴿ لَوْلَا فَصَّلْتَ آيَاتَهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ أي: هلا أنزل بعضها بالأعجمي، وبعضها بالعربي. هذا قول الحسن البصري، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام في قوله ﴿ أَعْجَمِيٌّ ﴾، وهو رواية عن سعيد بن جبيرة. وهو في التعنت والعداوة أبلغ.

ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ أي: قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب، ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرُّ ﴾ أي: لا يفهمون ما فيه، ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ أي: لا يبتدون إلى ما فيه من البيان، كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]. ﴿ أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال مجاهد: يعني بعيد من قلوبهم. قال ابن جرير: معناه: كان من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد، لا يفهمون ما يقول. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صَمٌّ بِكُمْ عَمِي فَهَمُّ لَا يَهْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١]. وقال الضحاك: ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَخْتَلَفَ فِيهِ ﴾ أي: كُذِّبَ واودى، ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الاحقاف: ٣٥]. ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الشورى: ١٤] بتأخير الحساب إلى يوم المعاد، ﴿ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ أي: لمجل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلا، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أي: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكين فيما قالوا، غير محققين لشيء كانوا فيه. هكذا وجهه ابن جرير، وهو محتمل، والله أعلم.

﴿ مِّنْ عَمَلٍ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ ﴾ ﴿ إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آتَيْنَ شُرَكَاءَ إِذْ قَالُوا ءَأَذْنُكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ ﴿ وَصَلَّ عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن نَّجِيصٍ ﴾ ﴿

يقول تعالى: ﴿ مِّنْ عَمَلٍ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك على نفسه، ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ ﴾ أي: لا يعاقب أحدا إلا بذنبه، ولا يعذب أحدا إلا

بعد قيام الحججة عليه ، وإرسال الرسول إليه .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ يُرِيدُ عِلْمَ السَّاعَةِ ﴾ أى : لا يعلم ذلك أحد سواه ، كما قال محمد ﷺ ، وهو سيد البشر لجبريل وهو من سادات الملائكة ، حين سأله عن الساعة ، فقال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » (١) ، وكما قال تعالى : ﴿ إِنِّي رَبُّكَ مُتَّبِعٌ ﴾ [التارعات : ٤٤] ، وقال : ﴿ لَا يَجْلِبُهَا لُوقُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف : ١٨٧] . وقوله : ﴿ وَمَا تَفْرُجُ مِنْ ثَمَرَةٍ (٢) مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ أى : الجميع بعلمه ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ [الانعام : ٥٩] ، وقال جلّت عظمته : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الزمر : ٨] ، وقال : ﴿ وَمَا يَحْمُرُ مِنْ مُمْسِرٍ وَلَا يَفْصَحُ مِنْ عَمْرٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ عَلَىٰ إِلَهِ يُسِيرُ ﴾ [فاطر : ١١] .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ إِيْنِ شُرَكَائِي ﴾ أى : يوم القيامة ينادى الله المشركين على رؤوس الخلائق : أين شركائى الذين عبدتموهم معى ؟ ﴿ قَالُوا أَذْنَاكُ ﴾ أى : أعلمناك ، ﴿ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ أى : ليس أحد منا اليوم يشهد أن معك شريكا ، ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : ذهبوا فلم ينفعوهم ، ﴿ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ ﴾ أى : وظن المشركون يوم القيامة ، وهذا بمعنى اليقين ، ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ ﴾ أى : لا محيد لهم عن عذاب الله ، كقوله تعالى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِنُهَا وَلَمْ يُجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف : ٥٣] .

﴿ لَا يَسْتَمِعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَسْأَلْ قَنُوطًا ﴿١﴾ وَلَيْنَ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْأَةٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّىَ إِنَّ لى عِنْدَهُ لَلْحَسَنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢﴾ وَإِذَا أُنْمِتْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ آعْرَضَ وَنَقَا بِحَايَتِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٣﴾ ﴾

يقول تعالى : لا يَمَلُ الإنسان من دعائه ربه بالخير وهو : المال ، وصحة الجسم ، وغير ذلك ، وإن مسه الشر وهو : البلاء أو الفقر ﴿ فَيَسْأَلُ قَنُوطًا ﴾ أى : يقع فى ذهنه أنه لا يتبها له بعد هذا خير . ﴿ وَيَقِينُ أَذَقَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْأَةٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِى ﴾ أى : إذا أصابه خير وورق بعد ما كان فى شدة ليقولن : هذا لى ، إنى كنت أستحقه عند ربى ، ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أى : يكفر بقيام الساعة ، أى : لاجل أنه خول نعمته بفخر ، وييطر ، ويكفر ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ . أَن رَأَى اسْتَعْتَنَ ﴾ [العلق : ٦ ، ٧] . ﴿ وَيَقِينُ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّىَ إِنَّ لى عِنْدَهُ لَلْحَسَنَىٰ ﴾ أى : ولئن كان ثم معاد فليحسنن إلى ربى ، كما أحسن إلى فى هذه الدار ، يتمنى على الله ، عز وجل ، مع إسهائه العمل وعدم اليقين . قال تعالى : ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا أُنْمِتْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ آعْرَضَ وَنَأَىٰ بِحَايَتِهِ ﴾ أى : أعرض عن الطاعة ، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله ، عز وجل ، كقوله تعالى : ﴿ فَكُلُّى بِرُكْبَةٍ ﴾ [الذاريات : ٣٩] . ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أى : الشدة ، ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ أى : يطيل المسألة فى الشىء الواحد ، فالكلام العريض : ما طال لفظه وقل معناه ، والوجيز : عكسه ، وهو : ما قل ودل . وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا

(٢) ثمره : قرارة الجمهور ، وكذا قرارة الحافظ ابن كثير .

(١) مسلم (١ / ٨) .

لَقَدْ كَفَفْنَا عَنْهُ ضُرَّةَ مَنْ كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرَّتِهِ ﴿ الآية [يونس: ١١٢] .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَتْرِبَهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ أى: كيف تُرَوْنَ حالكم عند الذى أنزله على رسوله؟ ولهذا قال: ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾؟ أى: فى كفر وعناد ومشاقة للحق، ومسلِّك بعيد من الهدى.

ثم قال: ﴿ سَتْرِبَهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى: سنظهر لهم دلائنا وحُجُجنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله، عز وجل، على رسوله ﷺ بدلائل خارجية ﴿ فِي الْأَفَاقِ ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان. قال مجاهد، والحسن، والسدى: ودلائل فى أنفسهم، قالوا: وقعة بدر، وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التى حلَّت بهم، نصر الله فيها محمداً وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبه. ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والاخلط والهيئات العجيبة، كما هو مسوط فى علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى. وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة، من حسن وقبيح وبين ذلك، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التى لا يقدر بحوله، وقوته، وحيله، وحذره أن يجورها، ولا يتعدها.

وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى: كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمداً صادق فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ [النساء: ١٦٦] .

وقوله: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ أى: فى شك من قيام الساعة؛ ولهذا لا يتفكرون فيه، ولا يعملون له، ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هُتْرٌ لا يعيرون به وهو واقع لاريب فيه وكائن لا محالة. روى ابن الدنيا عن عمر بن عبد العزيز أنه صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإننى لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم، ولكن فكرت فى هذا الأمر الذى أنتم إليه صائرون، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحمق، والمكذب به هالك ثم نزل. ومعنى قوله: «أن المصدق به أحمق» أى: لأنه لا يعمل له عمل مثله، ولا يحذر منه ولا يخاف من هوله، وهو مع ذلك مصدق به، موثق بوقوعه، وهو مع ذلك يتماذى فى لعبه وغفلته وشهوته وذنوبه، فهو أحمق بهذا الاعتبار، والأحمق فى اللغة: ضعيف العقل. وقوله: «والمكذب به هالك»: هذا واضح، والله أعلم.

ثم قال تعالى - مقررًا على أنه على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى: ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ أى: المخلوقات كلها تحت قهره وفى قبضته، وتحت طى علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن .